سينما

«مخلوقات مسكينة»

دعوة إلى التعبير البصري

قراءة نقدية لفيلم «مخلوقات مسكينة» تطرح سؤال مدى إمكانية إنتاج السينما العربية شبيهاً له، مع بحثٍ في معالمه السينمائية المُثيرة لنقاشات جمّة

نجيب نصير

ربما علينا التلويح لـ«السينمات العربية» للالتفات إلى كيفية صنع الأفلام، أو إلى كيفية التفكير بالأفلام. ليس لأنّ «مخلوقات مسكينة» (ترجمة غير مباشرة للعنوان الإنكليزي Poor Things، الذي له ترجمة أخرى: «أشياء فقيرة»)، الفائز بـ«الأسد الذهبي» في الدورة 80 (30 أغسطس/آب - 9 سبتمبر/أيلول 2023) لـ«مهرجان فينيسيا السينمائي»، فيلمٌ عظيم، تخلو من بعده الأفلام، كما اعتدنا وصف العظمة، بل لأنه (وغيره) دعوة إلى التعبير البصري، كما يراه المبدعون تماماً، فيفسحون المجال للبناء على إنجازاتهم، من دون أنْ يشكّلوا نقطة بداية أو نهاية لأحدٍ، فيبدو الفيلمُ تنبيهاً لـ«سينمات» كهذه: توقّفٌ عن تغطية المسكوت عنه بصرياً، وممارسةُ الصراحة عند المبدع في رؤيته الحقيقة. عن هذه الصراحة تحديداً، بنى اليوناني يورغوس لانتيموس عالماً مختصاً بتحويل المعلومات إلى معرفة، كتجربة فانتازية غير افتراضية. فالمعلومات العلمية غير نهائية إلى الآن، ويُمكن أنْ تنتقل إلى مرحلة غير نهائية أخرى، عبر التجربة والبرهان العلمي. لكنّ المُكتشف حتماً، والموجود فعلياً، أداءٌ إنساني تروِّضه التجربة، في تحويل العلم إلى معرفة. والمعرفة بطبيعتها بشرية اجتماعية. أيّ أنّها قابلة للترويض. لكنْ، ماذا لو لم تُروَّض هذه المنتجات العلمية، وظلّت على حقيقتها، أي كما صنعتها التجربة المخبرية: هل تدخل في صراع المفاضلة بين العلم الصريح والتنظيم التكاذبيّ للملذّات البشرية، في ما يُمكن تسميته بـ«الاجتماعية»؟

يطرح الفيلم هذه الإشكالية. القضية، من دون إغفال الحب والهوى، كوجود غير مُدرج في التجربة العلمية، التي تتلخّص بوضع دماغ جديد في جسد قديم، من عالِم بيولوجي وجرّاح ذي جسد حديث، ودماغ قديم ذي قِيَم علمية مثالية، منسوبة إلى عالم الصدق والمواجهة بالحقائق كما هي. هذا الرجل، غادوين باكستر (ويليام دافو)، يصبح الأب. الرحم بالنسبة إلى بيلا (إيما ستون، الفائزة بجوائز «بافتا» البريطانية و«أوسكار» الهوليوودية في فئة أفضل ممثلة، و«غولدن غلوب» الأميركية في فئة أفضل ممثلة في فيلم موسيقي أو كوميدي، 2024)، المرأة التي تمّ تركيب عقل جنين في جمجمتها، كي تستمر في العيش. بهذا العقل، عليها أنْ تتعلّم مسارات العيش البشري، في عزلة عن «الاجتماعية». عزلة يوفّرها منزل. مختبر غادوين، الأب الصانع المالك، في تلميح ذكي وعابر في مقاربة الاسم مع لفظ «غود»، ودمجه بـ«الأب» و«الآب»، الذي. لشدّة إخلاصه للعلم. يترك لبيلا حرية المغادرة، لاكتشاف المدى الذي يمكن أنْ تصل إليه هذه الإنسانة المهجّنة، التي تكتشف مكامن تلذذها، صدفة وغريزة، فترحل مع دَنْكن وَدِربِرن (مارك رَفالو)، الهائم بها، بحسب قاموس الحب المقتبس من «الاجتماعية»، رغم خطبتها إلى تلميذه ومرشدها، ماكس ماكانْدْلِس (رامي يوسف). بهذه المغادرة، تبدأ بيلا رحلتها من العيش إلى الحياة. دَنْكن، الذي يُدمّره هيامه بها لاحقاً، يتحلّى بالمواصفات «الاجتماعية» للذكر المُروَّض والمروِّض، فيتصارع الشخصان (لا الشخصيتان) على قيم ومبادئ، تبدو مختلفة المنشأ والفعالية، رغم كونها كلّها ناشئة من المصلحة الفردية. فاستخدام الجسد، بالنسبة إلى بيلا التي تنظر إليه نظرة صريحة مباشرة، مُتعاكسٌ تماماً مع نظرة دَنْكن المؤثِّمة لبيلا، نظراً إلى اندفاعها الصادق والمخلص لتلبية احتياجاته، فتقول له، وهي تبصق الطعام من فمّها على مائدة طعام «اجتماعية»: لماذا عليّ الاحتفاظ في فمي بمذاق لا يعجبني؟ رغم هذه الاستباحة المنفلتة لبيلا الهجينة، يزداد هيام دَنْكن بها، كأنّه يريد التحوّل إلى أيقونة ذكورية في « الاجتماعية»، التي يعيش وسائلها. يقودنا «مخلوقات مسكينة» («غولدن غلوب» أفضل فيلم موسيقي أو كوميدي، 2024) في عوالم هجينة، كبيلا وغادوين، في رحلة إلى مدن غريبة، رغم معرفتنا البصرية بها (أثينا، الإسكندرية، باريس)، ليبدو كلّ ما في هذا العالم مُهجّناً، فلا يمكن التعرّف على أثينا من أكروبولها، ولا باريس من برجها. يتحوّل المكان إلى صانع أزمنة، فلا زمن واحداً متسلسلاً يُمكن أنْ يلتقطه المُشاهد، فالأزمنة مرتبطة بالشخصيات، والمدن شخصيات أيضاً كما نُلاحِظ، بمعنى أنّها زمان، إضافة إلى كونها مكانا.

> عالمٌ يُحوّل المعلومات إلى معرفةٍ كتجربةٍ فانتازية

إيما ستون. بيلا (مخلوقات مسكينة): إنسانة مهجّنة تكتشف مكامن تلذّذها (الملف الصحافي)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

حوار

أجراه: **سعيد المزواري**

حوار «العربي الجديد» مع الممثل الأميركي ويليم دافو مفتوحٌ على اختبارات وتفاصيل مهنيّة وحياتية وفكرية، بلغةٍ سلسة التعبير والحركات

ويليم دافو

«أنجذب إلى المخرجين الذين يخلقون عالماً»

منذ «بوابة الجنة» (1980) لمايكل تشيمينو، الذي ظهر فيه ككومبارس، إلى «كائنات بائسة» (2023) ليورغوس لانثيموس، الذي أدّى فيه دور فرانكنشتاين من نوع خاص، خاض ويليم دافو تجربة تمثيلية استثنائية، قوامها زهاء 150 فيلماً، في خمسة عقود، قلّ نظيرها في العصر الحديث من ناحية الزخم الفني والتنوّع والتأثير. لا مجال لاستعراض لائحة بالمخرجين الكبار جميعهم، الذين اشتغل معهم، أمثال فيرنر هرتزوغ، ثيو أنغولوبولوس، ديفيد كرونينبرغ، زانغ ييمو، لارس فون تريير، وس أندرسون.

منذ «الفصيلة (Platoon)» لأوليفر ستون عام 1986، بدأ دافو يجذب الأنظار، قبل أنْ يضعه «الإغواء الأخير للمسيح» لمارتن سكورسيزي في الواجهة بعد عامين، حين برع في التقاط الغموض والشكّ ومسحة الأسى التي تلفّ شخصية المسيح. قدّم أدواراً خالدة في شخصية رجل العصابات المضطرب، في روائع مثل «أنْ تعيش وتموت في لوس أنجليس» (1985) لويليام فريدكِن، و Wild At Heart لديفيد لينش (1990)، من دون أنْ يسقط في أيّ منها في فخّ الأداء النمطي، حتّى عندما أدّى، بلمسةٍ كوميدية جذّابة، دور غرين غوبلن في «الرجل العنكبوت» (2002) لسام ريمي الذي أرسى قواعد تركيبة جديدة لأفلام الأبطال الخارقين، قبل أنْ تستنزفها آلة هوليوود الربحية.

لعلّ تجربتيه الطويلتين مع صديقيه المقرّبين بول شريدر وأبل فيرارا (7 أفلام مع كلّ منهما) تُعدّان من أبرز حالات التعاون بين مخرجين وممثل في تاريخ السينما. نال عشرات الجوائز والتكريمات في مساره، منها «كأس فولبي» لأفضل ممثل عن أدائه البديع شخصية فان غوغ، في «على بوابة الأبدية» (2018) لجوليان شْنايْبل. وجهٌ فائق التعبير، واعتماد على خلفية تكوين متينة بفضل اشتغاله لعقود مع «مجموعة ووستر للمسرح التجريبي» في نيويورك، وهو أحد مؤسّسيها، إضافة إلى إخلاص في تأدية الأدوار كلّها، مهما بلغ حجمها أو نوع الأفلام التي تنتمي إليها، محقّقاً توازناً غير هَيّن بين أفلام مخرجين مؤلّفين ومشاريع كبرى تنتمي إلى التيار السائد في هوليوود، كـ«رابطة العدالة» (2021) لزاك سنايدر. ويليم دافو ودودٌ ومتفهّمٌ، وسلسُ التعبير بالكلام والحركات، في إجابته عن أسئلة الحوار الذي أُجري بمناسبة حضوره الدورة الـ20 (24 نوفمبر/تشرين الثاني - 2 ديسمبر/كانون الأول 2023) لـ«المهرجان الدولي للفيلم بمرّاكش»، حيث سلّم «النجمة الذهبية الشرفية»، التي نالها عام 2015، لزميله الممثل الدنماركي مادس ميكلسن.

■ مررت حديثاً في تجربة تصوير «كائنات بائسة» ليورغوس لانثيموس. فيلمٌ رائع حقاً. عندما كنتَ بصدد الاشتغال عليه، هل كانت لديك فكرة عن مدى جودته، وعن كيف سيُستقبل؟ لأنّه تلقّى إشادات نقدية كثيرة.

شكراً لك. حقّاً، أنتَ لا تعرف مُسبقاً، ولا تفكّر في ذلك أيضاً. أو بالأحرى، أنت مشغول بما فيه الكفاية، بحيث لا تفكر فيه. أعرف أعمال يورغوس لانثيموس. كان العمل معه ممتعاً. هذا نصٌّ جميل. هناك خانات كثيرة تَمّ ملؤها فيه. أنا سعيدٌ لأنّه تلقّى ردود فعل إيجابية كثيرة من النقّاد، وعُرض في مهرجانات سينمائية عدّة. أولاً، الرواية جميلة جداً. تدبيرٌ ذكي للغاية أنْ تكون البطلة امرأة في جسدها، لكنْ لديها عقل طفلة. هذا لا يخلق منها طفلة حقّاً، بقدر ما يجعلها إنسانة تتعلّم بسرعة كبيرة، ولا تُسلّم بالأعراف الاجتماعية. شيءٌ جميل أنْ تبدو بريئة، لكنّها في الوقت نفسه أكثر الأشخاص حكمة، لأنّها ليست ملوّثة بالامتثال للتسوية مع تقليد اجتماعي معيّن. هذا يجعلها ترى ما وراء الأشياء كلّها، التي تمرّ بها. تعيش تجربتها مُتحدّثةً بالحقيقة. هذا تدبيرٌ جميل. الفيلم يحتوي على قدرٍ مُعتَبر من الكوميديا، وأفكار عميقة تتأتّى من حقيقة أنّنا ندرك أمامه القيُود التي نقبلها، بخصوص علاقاتنا الاجتماعية والجنسية، وأعراف أخرى. إنّه فيلمٌ ممتع، لكنّه يمتلك أيضاً نوعاً من الشراسة، إذا فكّرت فيه مليّاً. فيه أشياء كثيرة تَمُسّك بعمق.

■ نظراً إلى خلفية ممارستك المسرح، من بين الأشياء التي تفضّلها الاشتغال مع مخرجين يخلقون عوالم متماسكة. ما شعورك إزاء العمل مع يورغوس لانثيموس، بصفته مخرجاً يهتمّ كثيراً بالديكور والأزياء، والتفاصيل الأخرى؟ كيف ساعدك هذا المعطى في الاندماج مع شخصيتك في «كائنات بائسة»؟

هذا أمر بالغ الأهمية. يتخيّل الناس دائماً أنّ المخرجين يسحبونك جانباً، ويهمسون في أذنك: «حسناً. الآن حاول أنْ تتذكّر والدتك، إلخ.». ثم يحدّثونك عن علم النفس، وما إلى ذلك. هذا لا يحدث أبداً، أو على الأقلّ، لم يحدث معي إطلاقاً. أعتقد أنّ أفضل المخرجين، أو أولئك الذين أنجذب إليهم، رغم أنّ هناك استثناءات دائماً، هم من يصنعون عالماً كاملاً إلى درجة أنْ تجد في نفسك الرغبة والمرونة كي تدخله، ثم يدلّك هذا العالم على ما ينبغي لك فعله. تحدث الأمور هكذا، حقّاً. يتحدّث الناس، عادة، عن الاختيارات أو الأفكار المشتركة مع المخرج. لا أعتمد كثيراً على ذلك، بقدر ما أثق بوقع فعل الأشياء على الميدان. الحيلة أنْ تمنح نفسك مساحة للعمل على ما يوجد في حوزتك. أنْ تتأمّل في الأشياء، وتتشرّبها وتتركها تشتغل عليك. أنْ تتخيّل طريقة أخرى للوجود. هذا ما أحبّه. رجل مثل يورغوس لانثيموس (يتردّد قليلاً). كما تعلم، يتعلّق المخرجون عادة بشيء معيّن، كطريقة التصوير، أو علم النفس، أو القصّة. يورغوس يركّز على الحزمة بأكملها. إنّه رجل مثقّف للغاية، يعرف الكثير عن الرقص والهندسة المعمارية والتصوير الفوتوغرافي، ولديه اهتمامات واسعة. يقوم باختياراته عبر التشاور مع المشرفين على المهام الفنية، الذي يتّسمون بحرص كبير، قبل أنْ يطوّر الأشياء بدقّة معهم. هذا فيلم مُصمّم بعناية بالغة، يدفعك إلى الانخراط في التوجّه نفسه بمجرّد أنْ تدخله. بحلول الوقت الذي تندمج فيه مع هذا العالم، لا يكتفي هذا الأخير بإرشادك إلى ما ينبغي لك فعله، بل تحسّ أنّ لديك موضع قدم فيه، لأنّك شاركت في صنعه. تغدو مادة فنية، أو لوناً في اللوحة العامة. وكلّما حدث ذلك، شكّل مصدر حرية حقيقية لك. أتاح لك التطوّر بانسيابية، فتحدث الأشياء المهمة. أعتقد أنّ «كائنات بائسة» يجسّد هذا النوع من الطاقة وفرح الاشتغال.

■ هل كنت في حاجة إلى إعداد خاص لشخصيتك؟ خاصة أنّ غودوين باكستر يغدو إنسانياً بصورة غير متوقّعة في النهاية.

نعم، هذا صحيح. لم يتطلّب الأمر تحضيراً كثيراً. تعلّمت كيفية القيام بالأشياء التي يفعلها. ربما يبدو الأمر غريباً، لكنّي عملت مع شخص في المشرحة لأتعلّم كيف يفتحون الجثث ويقطّعونها بواسطة منشار، ويفعلون الأشياء كلّها التي يقوم بها الجرّاح. يبدو ذلك غريباً بعض الشيء، لأنّه لا يعتمد على أي نظرية تمثيل، ويتعلّق بأشياء لا نراها كثيراً في الفيلم. لكنْ، ما يمنحك إياه تجربةً فعلية للشخصية، تُصبح موطئ قدمك لتمثّل هذه الأخيرة. وما إنْ تقوم بها في الفيلم، حتى تغدو فعّالة، فتقول لنفسك: «انظروا إليّ. أنا جرّاح» (يضحك). مع قليل من التظاهر، تقول: «تمام. أستطيع فعل ذلك».

اشتغلت كذلك على تعلّم لكنة، وشاهدت شريط فيديو لكاتب الرواية التي اقتُبس منها الفيلم (ألَسدير غراي - المحرّر). رجل مثيرٌ للاهتمام. توفي عام 2019. هناك مقاطع فيديو له وهو يتحدّث، يبدو فيها غريب الأطوار. كانت طريقة حديثه مفيدة للغاية لي. ليس لأنّي اشتغلت على تقليدها، بل لأنّها ألهمتني. قرأت الرواية بالتأكيد، وشاركت إلى ذلك في تشكيل الأزياء.

■ كانت مشاهدة «في الداخل»، لفاسيليس كاتسوبيس، تجربة مختلفة أيضاً، لأنّه يبدو كعرض فني يتطوّر أمام أعيننا. هل كان الأمر كذلك في ما يخص مقاربة اشتغالك على دورك فيه؟

أحببت الاشتغال في هذا الفيلم لأنّه صُوّر وفق الترتيب الزمني للأحداث. أنا الممثل الوحيد في الفيلم أساساً، لكنّي لم أشعر بذلك. ربما يبدو قول هذا سهلاً، لكنّه حقيقي. الفضاء كان شريكي في الفيلم. اللوحات والأعمال الفنية والوضعية الدرامية عامة كانت كلّها شريكة لي. الجميل أنّنا توفّرنا على نص ممتاز، مَنحنا بنية سردية جيدة. لكنّنا اشتغلنا يومياً على حَلّ مشكلات واجهتنا. كنّا إزاء شيء حيّ، وليس المعتاد: فكرة معيّنة، علينا أنْ نشتغل على صنعها. تعلّمت من المسرح أنّ الأمور تعتمد على الفعل، لا على الادّعاء. «في الداخل» مثال نموذجي عن هذا، لأنّنا كنّا نفعل الأشياء عن طريق حَلّ المشكلات. كان ذلك يقع في قلب طرحه.

■ «المنارة» لروبيرت إغرز من بين أحجار الأساس لما يُعرف اليوم بـ«موجة الرعب الجديد». كيف كان شعورك عندما قرأت هذا السيناريو المجنون؟

لم أفكّر في الأمر بصفته جنوناً. فقط قلتُ لنفسي: «أوه. أريد العمل على هذا». انجذبت إلى المخرج أولاً. شاهدت فيلمه الأول، «الساحرة»، من دون أي التزامات مسبقة، لأنّي كنت منشغلاً بالعمل عند إطلاقه. لم أعرف أيّ شخص رآه، ولم أسمع شيئاً عنه من قبل. قلتُ لنفسي: «هذا فيلم بميزانية صغيرة، لكنّ الرجل يتميّز بشيءٍ ما». من هو هذا المخرج؟ حدّثت زوجتي عن ذلك، وهي نفسها مخرجة (جيادا كولاغراندي - المحرّر)، فقرّرت أنّه ينبغي لي مقابلته. التقيته، وتحدّثنا عن العمل معاً. بعد فترة قصيرة، اتّصل بي: «عندي مشروع لك». قدّمه لي، وتمّ الاتفاق. انجذبت إلى المخرج أولاً. عندما تقرأ نصّاً ما، لا تعرف حقيقته حتّى تشرع في صنعه، غالباً. لكنْ، ما يمكنك التأكّد منه اختيار رفيق دربك في العمل. هذه إحدى أعظم الضمانات التي يتوفّر عليها الممثل ضد إنتاج فيلم رديء، لأنّه، حتّى إن لم ينجح كما كنتَ تنتظر، فأنت على الأقل تعرف سبب إقدامك على إنجازه: كنتَ بصحبة أشخاص أُعجبت بهم، لأنّهم ينجحون في تحفيزك. لا يتعلّق الأمر كثيراً بالنص، في هذه الحالة.

ويليام دافو في «مرّاكش 2023»: كلّ شيءٍ تغيّر (مارك بياساكي/Wirelimage)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

ملاحظات

وُلد ويليم (ويليام) جيمس دافو في 22 يوليو/تموز 1955، في مدينة «أبّلتون» في «ويسكنْسن» الأميركية. بدأ حياته المهنية في المسرح، وحصل على أول دور سينمائي عام 1980، بفضل مايكل تشيمينو (بوابة الجنة). في «مهرجان مرّاكش 2023»، روى فصولاً متنوّعة من مهنته، في فقرة «حوار مع...»، متوقّفاً فيها عند اختبارات وحكايات، ومتناولاً تعقيدات المهنة ومتطلّباتها وتحدّياتها.